مجلة الشهاب • المجلد: 09، العدد: 03 (2023م) • ص ص 57 - 74
(ISSN: 2477-9954, EISSN: 2602-5485)
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/391





الوظيفة المعرفية للأنبيّاء من خلال القرآن الكريم
ـ دراسة نماذج ـ

The cognitive function of the prophets through the Quran - study models -

د/ بلال بوسنة *
كلية العلوم الإسلامية، جامعة الوادي (الجزائر)
billel.boussena19@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2023/04/04 تاريخ الاستلام: 2023/10/16 تاريخ النشر: 2023/11/15



ملخص: سعت هذه الورقة البحثية إلى محاولة عرض أبرز الطرق المعرفية التي تربط الإنسان بالوجود من خلال القرآن الكريم، والتي طُرحت وفق أشكال مختلفة كان أنبياء الله الفاعل الرئيسي فيها بسلوكهم وأقوالهم، وهدفهم من ذلك تحقيق النقلة المعرفية التصاعدية في أقوامهم؛ من المعرفة الحسية المنطوية على المادة وحدها والتي تعادل الانقطاع والكفر بالله، إلى المعرفة القلبية المنفتحة والمتجاوزة للمّادة والتي تعني الإيمان والاتصال بالله، وبين الطريق الأول والثاني حركة معرفية شاقة ذكرها لنا القرآن الكريم في عدة نماذج.

الكلمات المفتاحية: المعرفة؛ النبي؛ النقلة؛ القرآن؛ الوجود.

Abstract: This research paper sought to attempt to present the most prominent epistemological methods that link man to existence through the Holy Qur'an, which were presented according to various forms in which God's prophets were the main actors with their behavior and sayings. From sensory knowledge that involves matter alone, which is equivalent to severance and disbelief in God, to heartfelt knowledge that is open and transcends matter, which means faith and connection with God, and between the first and second paths is an aduous cognitive movement that the Holy Qur'an mentioned to us in several

Keywords: Knowledge; Prophet; the shift; Qur'an; existence.

* المؤلف المراسل.

1. مقدمة

إنّ عملية التباحث في مستويات المعرفة هي من الضرورة بما كان لمن أراد أن يتدرج في سلم معرفة، ولا سبيل إلى ذلك إلاّ إذا انطلق الإنسان من القرآن الكريم الذي يعتبر مولدا للمعرفة في أساسه، فالإنسان يحيا بالمعرفة ويموت بفقدانها، إذ تعتبر من المواضيع المهمة التي لا بد أن تطرح في كل مناسبة علمية لما لها من تأثير بارز في تحديد طبيعة العلاقة بين الإنسان والخالق، وبما أنها محورية في الوجود أردنا أن ننقلها من أفضل البشر أنبياء الله، فكان اختيارنا للعنوان مركزا في أساسه على حركة المعرفة من مستواها الأدنى إلى مستواها الأرقى التي سعى أنبياء الله لتحقيقها في أقوامهم، فكان العنوان موسوما بـ: الوظيفة المعرفية للأنبياء من خلال القرآن الكريم، حيث أردنا من هذا العنوان معالجة الإشكال الذي يخص مسألة التمكين من عدمه، وذلك عبر السؤال الجوهري التالي: **هل تحققت مساعي أنبياء الله في تحقيق النقلات المعرفية في أقوامهم أم لا؟** من الإشكالية فرعنا عدة تساؤلات فرعية، تمثلت في الآتي: ماهي مميزات الإنسان الكامل/ نّبي الله؟ كيف عرض القرآن الكريم مستويات المعرفة؟ فيما تمثلت النقلات المعرفية للأنبياء في أقوامهم من خلال القرآن الكريم؟ وهل تحققت مساعيهم في ذلك؟

وعليه اقتضت الورقة البحثية أن تمر عبر محورين رئيسيين تمثلا في الآتي:

المحور الأول: مستويات المعرفة من منظور قرآني

المحور الثاني: وظيفة النّبي معرفيا داخل أقوامهم -دراسة لبعض النماذج القرآنية-

هذا وكله عزم في تحقيق جملة الأهداف المرجوة والمتمثلة في محاولة توضيح موضوع طرق المعرفة أكثر من خلال القرآن الكريم، وذلك من أجل التوصل إلى إقامة علاقة قرب مع الله أولا، إضافة إلى ذلك توضيح أكبر إشكالية تخص علاقة المعرفة بمسألة الكفر والإيمان ثانيا، كما أننا أردنا أن نوضح أبرز طريق يعرف الوجود أكثر والمتمثل في الطريق القلبي الذي هو بحاجة ماسة إلى إظهاره في الوسط الإسلامي بصفة خاصة، المجتمع الإنساني بصفة عامة.

2. مستويات المعرفة من منظور قرآني

إنّ عملية التأسيس السليم للمعارف والعلوم ترتكز على القرآن الكريم، لما لهذا الأخير من خاصية بارزة في شموليته، وفي كرمه وعطائه. في هذا المحور أردنا أن نوضح مستويات المعرفة التي طرحها القرآن الكريم بدءًا بتعريف القرآن الكريم كمرتكز يُتكأ عليه؛ ثم تبيان قدر المستطاع مستويات المعرفة فيه.

2. 1. التعريف بالقرآن الكريم: تعددت وتنوعت التعاريف التي خصت القرآن الكريم من شخص إلى أخر، في هذه الورقة البحثية ركزنا على أبرز التعاريف الإسلامية التي نظرت إلى القرآن من زاويته المعرفية، عرفه أحد الباحثين قال: "القرآن صدى لب الوجود، ومرآة تعكس حقيقة الكون وحقيقة كل موجود، ألفاظه مصابيح تضيء طريق الحقيقة الدالة على الخالق وما خلق من مخلوقات نوعا وشكلا بدون

حدود، جاء القرآن بلغة علمية وبأسلوبه يحدد معالم نهج السعادة للمؤمنين الصالحين، وإرشاد للعلماء وتوجيه لهم بدون نهاية أو حدود ما دام للإنسان وجود، وكل المكتشفات العلمية، وإن كانت أقل منها في أبعادها لأنها بشرية، فهي لا تخالفه ولا تزيد عنه"[1]، ما يميز هذا التعريف أنه يبين أن كلمات القرآن هي لب الوجود وجوهره، وهناك تعريف لباحث آخر عرف القرآن الكريم بطريقة أشمل وأوسع، قال: "القرآن هو المعادل للوجود الكوني وحركته وما فيها من متغيرات مكانية وزمانية تنعكس كلها على المجتمعات والأبنية الحضارية وتحمل الدفع المستقبلي دوما"[2]، أي: إن القرآن الكريم يساوي الوجود في سيرورته الزمكانية، وهو مولد كل المعرفة الكونية، نلحظ من التعريف أن صاحبه أراد أن يعادل تعريف القرآن بالوجود المتحرك في الزمان والمكان، يقول: "صاغ الله هذا الكتاب الكوني بحيث يعطي أشكالا مختلفة من الوعي والمعرفة تبعا للفوارق النوعية في تطور العقل البشري وأنساقه المعرفية، فلا يصبح مستلبا بشكل مطلق لمرحلة تطورية دون الأخرى وليؤدي رسالته العالمية وعبر متغيرات المكان والزمان وموافق لكل منهج يظل مستمرا في أسلمة المعرفة عبر كل العصور وليس عصر معين"[3].

مما سبق ذكره من محاولات لتعريف القرآن الكريم، نسهم بمحاولة أخرى لتعريف القرآن الكريم، -وأسميناها بمحاولات- لأنها مهما ارتقت معرفيا تبقى محاولات في قبال القرآن الكريم، الذي يملك خصوصيات إلهية تتاح للخلص المطهرون بمعنى؛ أن فهمه والعلم به خاص وليس عام، وقد أوضح لنا ذلك الله عز وجل عن كتابه عندما قال: **إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون** [4]، أي أنه توجد فئة معينة لها القدرة على معرفة القرآن وفهمه بحسب وعائها، عكس ما أبداه أغلب المفسرين عندما فسروا "المطهرون" وقصدوا من خلالها الطهارة من الحدث الظاهري، فهناك فرق بين المّس، واللّمس، "لا يمس الكتاب المكنون في القرآن إلا المطهرون، والكلام على أي حال مسوق لتعظيم أمر القرآن وتجليله، فمسه هو العلم به، وهو في الكتاب المكنون، والمطهرون - اسم مفعول من التطهير- هم الذين طهر الله نفوسهم من أرجاس المعاصي وقذارات الذنوب، أو مما هو أعظم من ذلك وأدق هو تطهير قلوبهم من التعلق بغير الله تعالى، وهذا المعنى من التطهير هو المناسب للمس الذي هو العلم دون الطهارة من الخبث أو الحدث كما هو ظاهر"[5].

مما سبق ذكره نقول: إنّ القرآن الكريم هو كلام إلهي موجه إلى الإنسان يبصره بحركة وجوده من بداية خلقه في العوالم المختلفة إلى نهايته، ولا يختص بعالم الزمان والمكان فقط كما ذكر في بعض التعريفات، لأنه لو كان فعلا كذلك لأصبح كتاب دنيا، أو بعبارة أوضح كتاب تاريخ يعرض التجربة الإنسانية الخاصة بعالم الزمان والمكان فقط، لكن القرآن أوسع من ذلك بكثير؛ يشمل عالم الزمان

[1] رابح جابه، القران والعلم - خلق الإنسان والجان-، ج1، ص27.

[2] بلقاسم حاج حمد، المنهجية المعرفية للقرآن الكريم، ص93.

[3] بلقاسم حاج حمد، المرجع السابق، ص93.

[4] سورة الواقعة، الآية: 77-79.

[5] الطباطبائي، تفسير الميزان، ج19، ص137.

والمكان.

2. 2. مستويات المّعرفة من منظور قرآني: إذا أردنا أن نقرأ عن المعرفة في القرآن الكريم، فإن حجر الأساس في ذلك هو تحديد وضبط القالب الاصطلاحي والقالب التعريفي للمعرفة من خلال القرآن نفسه وكيف عرض لنا المعرفة، ثم لنعرف أيضا ضمن أي حدّ وتحت أي اصطلاح نبحث عنه، فمن جملة التعاريف اللفظية العامة للمعرفة هو أن: " المعرفة في كل حالاتها هي علاقة تقوم بين الإنسان الذي يعرف والشيء المعروف"[1]، وهناك من عرفها قائلا أنها: "فعل الذات العارفة في إدراك الموضوع وتعريفه بحيث لا يبقى فيه أي غموض والتباس"[2]، وقال آخر: "إنها ثمرة التقابل والاتصال بين الذات المدركة والموضوع المدرك، وتتميز من باقي الشعور من حيث أنها تقوم في آن واحد على التقابل والاتحاد الوثيق بين هذين الطرفين"[3]. مما سبق ذكره نخلص إلى أن: المعرفة تعني مطلق الإدراك في الوجود، "وهي أكبر من العلم، والعلم محتوى في المعرفة وبينهما نسبة العموم والخصوص المطلق"[4]، إذا قلنا أن المعرفة تساوي مطلق الإدراك في الوجود، والوجود مبثوث في القرآن الكريم، فإن التدرج في هذا يعرف مستويات وأدوات تراتبية بيّنها القرآن الكريم في أكثر من مرة.

لقد أسهم الفكر الإسلامي في بناء الحضارة الإنسانية بعد نزول القرآن الكريم، حيث دعا القرآن الكريم أمة الإسلام لطلب العلم والمعرفة منذ اللحظة الأولى في قوله تعالى: **اقرأ باسم ربك الذي خلق** [5]، فهذا أول خطاب إلهي وجه إلى النّبي صل الله عليه وسلم، وفيه دعوة إلى القراءة والمعرفة، وكل إنسان يولد في الدنيا خاليا من كل المعرفة، ثم يكتسب بعد ذلك جميع علومه ومعارفه عن طريق أدوات خاصة جهزه الله بها[6]، يقول الله تعالى: **والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا. وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون** [7]، وقال في موضع آخر: **ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير** [8]، نلحظ من الآية الأولى أن طلب القراءة هو للناس أجمعين، على اختلاف حظهم من العقل والقدرة على التفكير، فالإنسان يكتسب معارفه بعد اتصاله بالخارج عبر أدوات المعرفة التي أشارت إليها الآية الأولى والمتمثلة في "الحس، والعقل، والقلب" ولو فرضنا انعدام تلك الأدوات لما حصلت للإنسان أية معرفة، وهذا ما أكدته الآية الثانية عندما ركزت على ذمٍ للمتبوعين الذين يجادلون في الله من غير وعي، وبيان لطرق المعرفة، حيث تذكر أن هؤلاء لم يسلكوا طريق العقل ولا طريق العرفان،

[1] زكي نجيب محمود، نظرية المعرفة، ص10.
[2] مراد وهبة، المعجم الفلسفي، ص606.
[3] إبراهيم مذكور، المعجم الفلسفي، ص186.
[4] راجع عبد الحميد الكروي، نظرية المعرفة بين القران والفلسفة، ص49.
[5] سورة العلق، الآية: 01.
[6] أحمد عبد المهيمن، نظرية المعرفة بين ابن رشد وابن عربي، ص55.
[7] سورة النحل، الآية: 78.
[8] سورة الحج، الآية: 08.

كما لم يستعينوا بالوحي الذي هو الكتاب المنير وتفصيل ذينك الآيتين يُسلمنا إلى وجود عدة مستويات للمعرفة، والتي أُريد من خلال طرحها في القرآن أن توظف مركبة يكمل بعضها البعض كأداة لمعرفة الوجود أي؛ (الحس+ العقل+ القلب+ الوحي)= أداة واحدة للتفسير وجلب المعرفة، وأن تجزيء البعض من تلك المركبات يؤثر سلبا في عملية تحصيل المعرفة المقاربة للحقيقة، كما أنه يصنع اتجاهات وأسقف مغلقة تدافع عن أداتها المعرفية من غير اطلاع على الأدوات الأخرى، وهذا ما حدث في الواقع، من ذلك الانفكاك ظهر الحسيون والعقليون، والإشراقيون، كإفرازات على الساحة التاريخية، وأصبح أغلبهم يحتكرون الوسيلة لأنفسهم، وهذا ما نسعى إلي توضيحه في هذا العنصر؛ هو عرض تلك مستويات المعرفة الحقيقية التي طرحها القرآن الكريم، وتتمثل في الآتي:

أ- المعرفة الحسية: وهو طريق مفتوح لجميع البشرية بما في ذلك الحيوان، هذا الطريق يعد أول طرق المعرفة، ميدانه الطبيعة الحسية، وأدواته حواس الإنسان من سمع وبصر وشم ولمس...إلخ، هذا الطريق هو مرحلة أولية تفضي إلى مراحل بنائية لاحقة، إذن؛ هو بداية الطريق، لا كل الطريق.

نجد أن القرآن الكريم خص هذا الاتجاه بمواضع كثيرة نذكر من بينها قوله تعالى: **أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت** [1]، وعلى أية حال فإن هذه الآيات الجليلة لم تخاطب أهل هذه المرحلة في شأن السماء إلا من حيث رفعها كما يرفع السقف على البيت، وتلك هي أبسط نواحيها وأشدها بدائية[2]. هذا الطريق بالنسبة للحيوان محدود عكس الإنسان الذي يمتلك وسائل أخرى تتجاوز طريق الحس تساعده في التكامل أكثر، لكن هل استوعب الإنسان على مرّ عصوره أن أداة الحس طريق ممر لا طريق نهاية أم لا؟

كما أنّ الاعتماد على هذا الطريق وحده يفضي إلى أن الإنسان في تركيبته مادة فقط، أي لا يحمل مكونات ومركبات أخرى إلا المادة الخارجية التي يتواصل معها بالحواس الظاهرية فقط، لكن في حقيقة الإنسان أنه مركب من المادة ومن غير المادة فكما للمادة وسائلها المعرفية كذلك لغير المادة/ الغيب وسائله المعرفة، ومحاولة تحوير كل ما في الوجود إلى المادة وحدها هو ضرب من الخيال وقصور في فهم معادلة الوجود، وإذا جعل الإنسان الحس مقصده وغايته تجرد من خصيصته الغيبية الإلهية وركن إلى المادة البدنية وحاجياتها التي لا تعدو أن تكون فانية بفناء البدن، وتصبح القيم المادية الزائلة هي الشغل الشاغل وهي المتعلق الوحيد للإنسان، فإذا تعلق بها وانقطع عن باقي المستويات التصاعدية للمعرفة التي تؤول إلى معرفة الله فإنه حتما يساهم في موته التدريجي ريثما انتهت تلك المادة وفنت.

ب- المعرفة العقلية:

لما كان القرآن يطلب من أتباعه الفهم الواعي لما يلاحظون ويشاهدون ويحسون، ولما كان الإنسان

---

[1] سورة الغاشية، الآية: 17- 20.

[2] محمد غلاب، المعرفة عند مفكري الإسلام، ص72.

بوسائل معارفه الحسية وحدها لا يستطيع استيفاء جميع مطالبه الفكرية، فكان لا بد له أن يتخطى تلك المعرفة الحسية في اكتساب المعارف ويصعد درجة من درجات السلم المعرفي.

وهنا ينتقل الفكر من مرتبة النظر إلى الكائنات بعين البصر، إلى مرتبة النظر في الموجودات بعين الذهن المعتمد على الحواس، ومن ذلك قوله تعالى: **أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج، والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي و أنبتنا فيها من كل زوج بهيج. تبصرة وذكرى لكل عبد منيب** [1]، فهذه الصورة المرئية التي رسمتها الآيات من وجود السماوات بعضها فوق بعض، وما يتراءى فيها من شموس وكواكب وما يشاهد ويلاحظ من نظامها الدقيق، ووجود الأرض بما عليها من جبال وبحار وصلاحيتها لمقام الإنسان إن كل هذه الصور المرئية فيها دعوة قوية إلى وجوب النظر، ثم إلى التفكير في الموجود المرئي للوصول من ذلك بالعقل إلى المجهول[2].

وبذلك يوجه القرآن نظرنا إلى ضرورة وجوب الملاحظة والتفكير فيما يحسه الإنسان ويشاهده ليصل من ذلك إلى ما لم يكن يعرفه، وهذا الطريق العقلي المعتمد على الحواس يمكن أن يسمى "طريق الأسباب والمسببات"، حيث ينظر المستدل أولا إلى المرئيات ثم يحاول أن يتبين أسبابها المباشرة، أي المؤثرة فيها بلا واسطة، وآيات الأسباب والمسببات في القرآن كثيرة قال تعالى: **وهو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون. ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون** [3]، كما نجد أن القرآن الكريم يؤكد ويصر على وجوب الملاحظة والتفكير، كما يصنف ويجعل من لا ينتفع بحواسه وعقله في صف البهائم أو أضل أو يحكم عليه بأن مأواه جهنم، يقول تعالى: **ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون** [4].

ومن هنا فإن البحث في القرآن اضطر المسلمين اضطرارا إلى استعمال عقولهم، فهو يحث على النظر والتأمل، وعدم أخذ الأمور تقليدا واتباعا للأجداد وللأسلاف، ويسخر من هؤلاء الذين مثلهم كمثل الحمار يحمل أسفارا ومن هؤلاء الذين يقولون كما قال الله عنهم: **إنا وجدنا آباءنا على أمة و إنا على آثارهم مقتدون** [5] ويعقب على قولهم فيقول: **أولو كان آباءهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون** [6]، وعليه فإن القرآن الكريم حث في أكثر من مناسبة إلى استعمال العقل، وأن إهماله وعدم توفير شرائط عمله سيؤول في النهاية إلى تعطيله، وهذا ما هو متفشٍ في الواقع المعيش، عندما طغت متطلبات الغريزة وأصبحت

---

[1] سورة ق، الآية: 6-7.
[2] ينظر: أحمد عبد المهيمن، نظرية المعرفة بين ابن رشد وابن عربي، ص61.
[3] سورة النحل، الآية: 10- 11.
[4] سورة الأعراف، الآية: 179.
[5] سورة الزخرف، الآية: 22.
[6] سورة المائدة، الآية: 104.

مشغلا ومطمحا للإنسان في قبال العقل، أدى ذلك إلى تهميشه واقصائه؛ لأن العقل الذي لا يُسقى بالقراءة والتفكير يموت كما تموت الشجرة التي لا تسقى بماء الحياة، وعكس ذلك فإن أصحاب هذا الاتجاه المهتمين بالعقل وحركته هم الأقرب إلى استيعاب إفرازات المعرفة القلبية عقليا، وتذوقها إذا ساروا إليها عمليا.

ج - المعرفة القلبية/ الذوقية:

إنّ ميادين المعرفة وموضوعاتها متنوعة تنوعا يزيد على تنوع وسائل المعرفة في الإنسان، كما تتنوع وطبيعة الموضوع المراد التوجه إليه، فإذا كان الموضوع لا يوجد في عالم المادة فإن الحواس تكون قاصرة في نقله، كما يقف العقل مذبذبا في أحكامه كذلك، بل هناك طرقا أخرى تتجاوز الحس والعقل، مثل طريق القلب، هذا الأخير يعَدُّ خصيصة إلهية مودعة في الإنسان به يخرق حجب الغيب شريطة تطهير نفسه والمحافظة على سلامة قلبه. يقول أحد الباحثين في هذا الشأن متحدثا عن سلامة القلب: "ونتيجتهُ دائرةٌ على كشف الغِطاء، وتحقيق الإمداد والعطاء، وهو الذي لا يُنالُ بحيلةٍ"[1]، وهناك من الباحثين من قال عنه أنه: "أداة المعرفة يُعدُّ مركز الإدراك الذّوقي أو الفهم"[2]، والذوق لا يتأتى إلا بالمعرفة الرسمية التي أنجبتها البراهين العقلية بواسطة الذكر، أي لا يكون الذكر مجرد النطق باللسان، بل استحضار القلب لمعاني أسماء الله الحسنى التي اكتسبها في مرحلة المعرفة الرسمية فالذكر يردد بلسانه وفي نفس الوقت يحضر بقلبه اسم الله أو غيره من الأسماء الحسنى إلى أن يكف ومعها اللسان عن الحركة ويستمر ذلك على مستوى القلب ويواظب عليه إلى غاية فناء صورة الكلمة وبقاء معناها مجردا حاضرا فيه وكأنه ملتصق به وحينها لا يمكن الفصل بين الذكر والفكر فيصبح طريق الذكر هو نفسه طريق الفكر، وخلالها يحصل للذاكر فوائد كثيرة منها ما يرجع إلى محاسن الأخلاق الدينية ومنها ما يتعلق بالكرامات والمعارف التي يتلقاها"[3].

وهذا الطريق الذي يسلكه الإنسان إلى معرفة الله، يعتبر هبة إلهية للإنسان المحقق لشروطه، يقول الله تعالى: **و اتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شيء عليم** [4]، فالعلم الذي يحصل لا بطريق الاكتساب وحيلة الدليل يسمى إلهاما، والذي يحصل بالاستدلال يسمى اعتبارا واستبصارا، والإنسان ليس حسا وعقلا وحسب، بل الإنسان بروحه الشفافة ونفسه الزكية، وبصيرته المضيئة، وإذا ما صفت الروح، وتزكت النفس زال عن البصيرة ما تراكم عليها من صدأ كان يحجبها باستمرار عن أداء وظيفتها، وإذا ما تزكت النفس أصبحت محلا للإلهام وللمعرفة المستنيرة في عالم ما وراء الطبيعة، وهذا العلم متاح للأولياء

---

[1] أبو العباس أحمد زروف الفاسي، مقدمة التصوف وحقيقته، ص16.
[2] أحمد عبد المهيمن، نظرية المعرفة بين ابن رشد وابن عربي، ص63.
[3] الطاهر بونابي، الظاهرة الصوفية العرفانية بالمغرب الأوسط، ص119.
[4] سورة البقرة، الآية: 282.

يقع في قلوبهم بلا واسطة من حضرة الحق تعالى، يقول الله تعالى: **وعلمناه من لدنا علما**[1] ويسمى هذا العلم بالعلم اللّدُني أو الإلهام ومفتاحه استغراق القلب بذكر الله[2].

لكن الإشكال الذي حصل على الساحة التاريخية أنه تم التعاطى مع طرق المعرفة منفصلة عن بعضها البعض كما أشرنا سابقا، حيث أصبح كل طريق يمثله اتجاه يُكنى بمسمى ذلك الطريق، فأُطلق على الاتجاه الحسي تسمية: "الماديون"، وعلى الاتجاه العقلي تسمية: "العقليون"، وعلى الاتجاه القلبي: "الصوفيون والعرفانيون"، وأصبح كل اتجاه يُخوّن الآخر ولا يطمح إلى الوصول إلى أسراره محتكرا المعرفة لصالحه رغم تفاوتها وهذا ما أخل بالمعرفة برمتها، والتخوين يكون حسب ترتيب الطرق وأهمياتها، حيث نجد الحسي المنطوي على نفسه يستنكر العقلي والقلبي لأنه لم يستوعبهما ولم يعمل للوصول إليهما، وكذلك العقلاني الذي انطوى على دائرته تجده غالبا ما يستنكر الطريق القلبي لأنه لم يستوعبه ولم يعمل للوصول إليه.

إنّ المعرفة القلبية تُعد درجة راقية في سلم المعرفة، وهي متاحة للإنسان المؤمن الذي يلتزم بشريعة الله وفق ما أراده الله منه، ثم إنها المقصد والغاية التي أرادها الله عزّ وجل أن تتحقق في عباده، ولا يتأتى طريق هذه المعرفة إلا إذا سبقها طريق العقل والحس، فمعرفة التكاليف والقيام بها هي من المهمات الأولية للعقل والحس، اللذان يعتبران طريقا إلى المعرفة القلبية ولا يمكن الفصل بين ثلاثية الحس والعقل والقلب، وأيُّ فصل بينهم يؤول إلى تضارب في اقتناء الحقيقة.

كما تمتاز المعرفة القلبية بسعة الأفق، كونها متجاوزة للزمان والمكان هذا من جهة، ومتجاوزة عن أفهام العقول المنقطعة على الله من جهة ثانية، إنها المعرفة الإلهية المستودعة في قلوب أوليائه بسبب صفائهم وتقواهم، أصحاب هذه المعرفة يكونون أقرب إلى الأنبياء والرسل وأقرب إلى الله من باقي المعرفتين العقلية والحسية.

ويمكننا أن نضع معادلة نوضح فيها هذه المعرفة، بدءًا بتفكيكنا لتركيبة الإنسان كأرضية ننطلق منها، لنعرف في النهاية علاقة الإنسان بالمعرفة القلبية من خلال القرآن الكريم، وهي على النحو التالي:

الإنسان في بداية خلقته = (نفس+ بدن+ عقل+ قلب+ روح)، الله عزّ وجل خلق الإنسان في فطرة سليمة تحوي على جميع العناصر السابقة مرتبطة بفيضه ونوره عبر واسطة الروح تلك النفخة الإلهية التي تربط بين الإنسان وخالقة عبر القلب الذي يعتبر جوهر النفس، ويعد جهازا لاستقبال الروح الإلهية في الإنسان، بمعنى؛ أن الله في بداية الخلق نفخ الروح في البدن فتكونت النفس البّريئة وزودها بوسائط المعرفة، وترك لها حرية الاتصال والانفصال عن الله بسبب الأعمال، قال تعالى: **قد أفلح من زكاها وقد**

---

[1] سورة الكهف، الآية: 65.

[2] عبد الحليم محمود، الإسلام والعقل، ص111.

خاب من دساها [1]، أي أن الطفل الصغير يولد ملائكيا بالفطرة ثم يمتلك أدوات المعرفة المتوافقة مع عالم المادة ليعرف عظمة خالقه من خلال الكون، وذلك وفق أدوات المعرفة المودعة فيه هذا من جهة، إضافة إلى إرسال الله له الوحي والدّال عن الوحي من جهة ثانية، وكل هذا هدف في تكامله وتحقيقه القرب الإلهي.

وعليه إذا استطاع الإنسان أن يحافظ على سلامة قلبه فإنه يحافظ على اتصاله بالله، وبالتالي فإنه يحافظ على حياته، لأن الاتصال بالله يساوي الحياة والانقطاع عن الله يعادل الموت، وليس كما يروجون للموت أنه موت البدن هذه نظرية مادية تنظر للإنسان على أنه مادة. فموت الإنسان في الحقيقة هو موتٌ لقلبه بسبب معاصيه وإذا مات القلب انقطع اتصاله بالله وإنْ كان يتحرك بالنفس، فكم من أحياء في عالم المادة هم ميتون في الحقيقة بسبب تغليف قلوبهم، وكم من أموات في المقابر هم أحياء بسبب قلوبهم المتصلة بالله، فعند تجرد البدن وموته لا يعني موت الإنسان وإنما نفسه انتقلت وخرجت من تلك المركبة المادية (البدن)، وإذا كانت تلك النفس سليمة محافظة على سلامة قلبها تبقى متصلة وحيّة في عالمها الخاص، وتبقى تأثيراتها على عالم الدُّنيا لكن كثيرا من الناس لا يشعرون، يقول الله تعالى: **ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أموا اتا بل أحياء عند ربهم يرزقون** [2]، ويقول في آية أخرى: **ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون** [3] كما نجد أن الله عزّ وجل يركز في أكثر من مرة على سلامة القلب يقول عزّ وجل: **يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم** [4]، فالتركيز على تطهير القلب والمحافظة على سلامته هو في النهاية يصب في صالح الإنسان؛ لأنه يحافظ على اتصاله بالله الخالق المطلق، وبالتالي فإن الشريعة والأنبياء والمرسلين هم في النهاية نعم إلهية للإنسان تساعده على الارتقاء والتكامل.

استرسالنا في الحديث عن هذه المعرفة راجع إلى أهميتها في حياة الإنسان هذا من جهة، ومن جهة ثانية تهميشها في الواقع المعيش سواء في مناهج التدريس أو الممارسات اليومية، متجاهلين قيمتها ورتبتها وقدرها ومستبعدين حضورها لدى الإنسان، بحيث كلما ابتعد الإنسان عن هذه المعرفة كلما ابتعد عن القيم وعن الدين وبالتالي انقطع عن الله وأصبح مثله مثل الحيوان وربما أقل من ذلك، يقول الله تعالى في هذا الشأن: **ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون** [5]، وفي قوله: **أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها وآذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى**

[1] سورة الشمس، الآية: 09.
[2] سورة آل عمران، الآية: 169.
[3] سورة البقرة، الآية: 154.
[4] سورة الشعراء، الآية: 89.
[5] سورة الأعراف، الآية: 179.

القلوب التي في الصدور [1]، وكلما استثمر الإنسان فيها واجتهد في تحصيلها كلما أُتيحت له إمكانات خارقة وهبات إلهية بها يعرف الوجود ويفسره، يقول الله تعالى عن مكتسبي هذه المعرفة: **أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون** [2]، فالسّعيُ إلى تحصيلها والمجاهدة في امتلاكها ضرورة ملحة، قال تعالى: **والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا** [3]، وإذا تولى الله عزّ وجل هداية الطالب لهذه المعرفة إلى الطريق فإنه لا يشقى ولا تبهم الحقائق أمامه في الوجود، يقول تعالى: **أومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس** [4]، قدم أحد المفسرون تفسيرا في غاية الأهمية بمكان بخصوص هذه الآية عندما قال: فالإنسان قبل أن يمسه الهدى الإلهي كالميت المحروم من نكهة الحياة الذي لا حس له ولا حركة، فإن آمن بربه إيمانا يرتضيه كان كمن أحياه الله بعد موته، وجعل له نورا يدور معه حيث دار يبصر في شعاعه خيره من شره، ونفعه من ضره، فيأخذ ما ينفعه ويدع ما يضره، وهكذا يسير في مسير الحياة"[5] فإذا اكتسب الإنسان هذه المعرفة التي تحييه فإن حياته تكون طيّبة، "محفوظة بالملائكة مصونة لا يمسها نصب ولا لغوب، لا يرى إلا خيرا، ولا يواجه إلا السّعادة، وهو في أمن وسلام، لا خوف معه ولا خطر، ومن هذا الشأن فإنه يرى مالا يراه الناس، ويسمع ما لا يسمعونه، ويعقل ما لا يعقلونه، ويريد ما لا يريدونه وإن كانت ظواهر أعماله وصور حركاته تحاكي أعمال غيره[6].

د - المعرفة الوحيانية: تُعد أرقى المعارف طريقها الوحي، خاصة بالأنبياء والرسل فقط، لها مكانة سامية لأنها مصونة من آفات الخلط بين المثال المتصل والمنفصل، ومضار الالتقاط لدى العقل الجزئي والكلي ومن غبار تأثير إبليس وإيحاءات المغالطات، وغمام السهو والنسيان وسائر الآفات المعرفية، وعليه تعتبر المعرفة الوحيانية مقياسا ومعيارا لتقييم سائر أنواع المعرفة، هي السلم والترتيب الأعلى في المعرفة؛ أي من الله إلى الرسول أو النبي صاحب المعرفة الوحيانية ثم إلى بقية الناس الذين لهم التأهيل للوصول من المعرفة القلبية - درجة الأولياء- كأقصى حد للمعرفة مرورا بالمعرفة الحسية والعقلية.

إنّ المعرفة الوحيانية هي تأييد رباني لأنبيائه ورسله، هي معرفة مباشرة لهم عن طريق الوحي؛ فمن الغرابة أن يُقال عن النبّي أو الرّسول أنه يُخطئ أو تصيبه حالات السهو والهذيان؛ لأن هذه الأمور تحدث في أدنى مراتب المعرفة، المعرفة الحسية نموذجا، عكس المعرفة الوحيانية المصونة من الخطأ ولنا في القرآن الكريم عدة نماذج خصت حضور هذه المعرفة مع الأنبياء والرسل نورد بعضا منها، يقول تعالى: **وأوحي إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون** [7]، بعد أن قضى نوح

---

[1] سورة الحج، الآية: 46.
[2] سورة البقرة، الآية: 6-7.
[3] سورة العنكبوت، الآية: 69.
[4] سورة الأنعام، الآية: 122.
[5] حسين طباطبائي، تفسير الميزان، ج7، ص337.
[6] المرجع نفسه، ص338.
[7] سورة هود، الآية: 36.

عليه السلام عمرا طويلا في دعوة قومه، تأتيه المعرفة الوحيانية الإلهية المباشرة أنه لن يؤمن من قومك إلا الأشخاص الذي آمنوا فلا تتعب نفسك معهم، وفي آية أخرى يقول تعالى: **وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هي تلقف ما يأفكون** [1]، بعد أن جُمع سحرة فرعون لمباهلة موسى عليه السلام وإلقائهم لسحرهم، أوجس موسى خيفة، فأتته المعرفة الوحيانية المباشرة: أن ألق عصاك فإذا تلقف ما يأفكون. وفي موضع آخر؛ أسرّ النبي صل الله عليه وسلم إلى بعض زوجاته حديثا وأمرها بكتمانه، فلما نبأت وقالت به أتاه الوحي مباشرة بذلك، يقول تعالى: **وإذ أسرّ النّبي إلى بعض أزواجه حديثا فلما نبأت به وأظهره الله عليه عرف بعضه وأعرض عن بعض فلما نبأها به قالت من أنبأك هذا قال نبأني العليم الخبير** [2]، من هذا النموذج الأخير نلحظ أن معرفة الأنبياء والرسل هي معرفة متعلقة بجميع شؤون الحياة بما في ذلك الحياة الشخصية، وأنا هؤلاء الأنبياء والرسل هم النموذج الأعلى، هم الخلفاء الإلهيون في الأرض الحقيقيون في صفاته الدّالون عن الله بالمعرفة الحقيقية الإلهية التي لا يشوبها نقص ولا ضعف ولا نسيان.

إنّ معرفة الأنبياء والرسل هي الميزان والأداة التفسيرية التي تقاس عليها جميع المعارف، هم قطب رحى المجتمع، معرفتهم الوحيانية هي التي تخضع باقي الطرق؛ من الحس إلى العقل إلى القلب للتقييم، بمعنى أن الأقرب إلى الأنبياء والرسل هم أصحاب المعرفة القلبية الذي يؤمنون بقلوبهم، ويؤمنون أن أقوالهم وحي ووجوده بركة في كل وقت، وأي اعتراض عن طلبات أو مواقف الأنبياء والرُّسل هو في النهاية اعتراض عن الله هذا من جهة، ومن جهة ثانية قصور في معرفة النّبي، أي أن الذي لا ينفذ أوامر النّبي أو الرسول أو يعارضه هو في النهاية لم يتخط بعد المستوى الحسي في المعرفة، نضرب مثالا قرآنيا في أن الأنبياء معرفتهم معرفة صادقة لا يشوبها النقص، وأنها معيار كل المعارف، يقول تعالى: **وجعلني مباركا أين ما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا** [3]، أي أن عيسى عليه السلام مجعول من الله مباركا في أي مكان يكون فيه، وبما أن بركته التي تكون في كل مكان فإنها تساوق الصواب كذلك في كل مكان، لأنه من المحال أن تجتمع البركة مع الخطأ وهذا ما يؤكده القرآن جليا في أكثر من مرة، يقول تعالى: **وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى** [4].

3. الحركة المعرفية التي فعَلها الأنبَياء في أقوامهم ـ دراسة نماذج قرآنية ـ

إنّ الأنبيّاء والرسل لهم وظّيفة معرفية بارزة وشاقة تكمن في تحقيق النقلات المعرفية التي توصل الناس إلى الله؛ من مستوى الحس المنطوي على نفسه إلى مستوى القلب المجرد عن أسوار المادة، أي من مستوى الكفر إلى الإيمان وهذا ما نريد توضيحه في هذا المحور بدءًا بالغاية الأساسية والمقصد الإلهي من

[1] سورة الأعراف، الآية 117.

[2] سورة التحريم، الآية: 03.

[3] سورة مريم، الآية:31.

[4] سورة النجم، الآية: 03-04.

بعثة الأنبّياء والرسل كمحطة تصورية، ثم توضيح وظيفتهم المعرفية في أقوامهم وذلك بانتقاء بعض النماذج من القرآن الكريم.

أ- الغاية من بعثة الأنبياء والرسل: تكمن الغاية الأساسية في:

- نقل المجتمع من عبادة الأصنام الحسية إلى عبادة رب الأصنام.
- تحقيق النقلات في المجتمع من الكفر بالله إلى الإيمان به.
- تحريك إرادة الإنسان ومحاولة نقلها من مستوى التثبيط إلى مستوى التفعيل.
- هداية الناس إلى الطريق الصحيح - التوحيد-
- إقامة الدليل والحجة على الناس.
- إقامة العدل في العالم يقول الله تعالى: **يا داوود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق، ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله، إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب** [1].
- إسعاد الناس في حياتهم الدنيوية فضلا عن الحياة الآخرة.

مما سبق ذكره من الغايات والأسباب التي بُعث من أجلها الأنبياء والرسل، نقول: إن محاولاتهم التعريفية والتوضيحية للدّين كانت تصب في صالح أقوامهم؛ وكل ذلك عزمٌ في تقريبهم من الله الذي لا يخيب من عرفه، لكن الحوائل والمعيقات والحجب العقلية والقلبية حالت دون ذلك لدى أغلب الناس في أقوامهم، والسبب راجع إلى افتقارهم للمعرفة التي تلبسهم الإيمان الحقيقي بالله، إضافة إلى استكبارهم وتعنتهم هذا من جهة ثانية، إضافة إلى ذلك أن الله عزّ وجل يُعرف بالقلب لا بالحس والعقل، وإنما هذين الأداتين الأخيرتين هما طريقان إلى المعرفة القلبية وخير دليل على ذلك قوله تعالى: **قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم، وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئا، إنّ الله غفوررحيم** [2]، من هذه الآية يتبين أن أقوام الأنبياء لو أطاعوهم لأوصلوهم إلى حقيقة الإيمان الذي لا يعرف الزيف والنكران.

ب- النقلات المعرفية للأنبياء - دراسة بعض النماذج القر آنية-

إنّ عملية تحقيق النقلات المعرفية للأنبياء في مجتمعاتهم الكافرة المنقطعة عن الله؛ هي عملية تصاعدية من المستوى الحسي البهيمي، إلى المستوى العقلي ثم المستوى القلبي، وسنورد بعض النماذج القرآنية مرتبة على تلك المستويات من خلال القرآن الكريم.

---

[1] سورة ص، الآية: 26.

[2] سورة الحجرات، الآية: 14.

1- المستوى الحسي:

إنّ الإطار المعرفي لأقوام الأنبياء كان حسيا في أساسه، وهذا الأمر جعل الأنبياء عليهم السلام يواجهون مشكلة صعبة في تغيير ذلك المستوى؛ لأن المستوى الحسي المنطوي على نفسه فقط يخلق إفرازات مادية بهيمية شيطانية في أساسها؛ كالاستكبار والتعنت والتعلق بالشهوات البهيمية من غير قيد، والاعتقاد بمادية الدّنيا، هذا الاعتقاد رفض كل التصورات التي تخالف إطارهم المعرفي يقول الله تعالى: **وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا. يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجرا محجورا** [1]، وكما يلاحظ في هذه الآيات أنه جاء بشأن الكفار أنهم اعتبروا صحة دعوة الأنبياء بالنسبة للوحي والرسالة مرهونا بمشاهدة الملائكة، وكانوا يرون صحة دعوتهم بشأن الله لملازمة رب العالمين، وقد بين القرآن الكريم استكبارهم وطغيانهم وأشار إلى طلبين مستحيلين قد طلبوهما، أحدهما المشاهدة الحسية لله وهي محال مطلقا، لأن الله ليس بالإمكان رؤيته بالعين الظاهرة المادية، كما أنّ نظرة الكفار المادية الحسية تجاوزت ذلك بكثير قالوا على لسان القرآن: **لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم** [2]، أي أن الكفار في إنكارهم للوحي ورغبتهم في النظرة المادية قالوا: لما لم ينزل على فلان الغني الطائفي أو المكي، إذا المقياس عندهم هو المادة لا غير، وقوله تعالى: **فأعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا. ذلك مبلغهم من العلم** [3]، وبسبب هذا النطاق المحدود من العلم يطالبون بمشاهدة حسية للقيامة ما إن يطرح حديث القيامة وما إن يسمعون كلاما بشأن الله، يطالبون بلقاء مادي معه.

وما يؤكد حديثنا السابق في القرآن الكريم عن قوم بني إسرائيل الذين تعنتوا كثيرا للمعرفة الحسية المادية في أكثر من مرة، وأنهم كانوا يعتبرون أنفسهم عباد الله في ألسنتهم من البداية، لكنهم في قلوبهم وفي نمط تفكيرهم لم يكن لديهم اعتقادٌ إلا بالحسّ وكل ما يرتبط بالحس، وهنا تبرز العلاقة الوطيدة بين مستويات المعرفة وعلاقتها بالإيمان، وأنّ الإيمان لا يكون بالحواس وإنما يكون بالقلب الذي يصدق الإيمان، أما الحواس فهي طريق أولي لنقل الإيمان عبر العقل إلى القلب، قال تعالى: **قالت الأعراب آمنا قل لم تومنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم، وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئا** [4]، وهذه آية صريحة في أن الإيمان الحقيقي يكون تصديقه بالقلب، فإذا ما تم تذوقه وتصديقه ومشاهدته بالقلب فإنه من المحال أن يتبدل أو يتغير، أما إذا بقي الإيمان يراوح الحس فقط فإنه رهينة التغير والاهتزاز، وهذا ما حصل مع قوم موسى واستغلال السامري غيبة موسى عليه السلام لتمويههم بإله حسي، يقول الله تعالى: **فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار فقال هذا إلهكم وإله موسى**

---

[1] سورة الفرقان، الآية 21-22.

[2] سورة الزخرف، الآية: 31.

[3] سورة النجم، الآية: 29- 30.

[4] سورة الحجرات، الآية: 14.

فنسي. **أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا** [1]، من الآية نخلص إلى أن الذي يعرف الكون وفق المنظور الحسي وحده ويؤمن طبقا لمعاييره يتخلى عن إيمانه في أي لحظة تهز جانبه الحسي، ولما كان بنو إسرائيل هكذا، فقد آمنوا بالنّبي موسى عليه السلام حينما رأوا عصاه تتحول إلى أفعى، وحينما رأوا العصى تفلق البحر، ثم عندما شاهدوا خوار جسد العجل اتجهوا إلى السامري، والجانب الحسي هو الذي فهموه من صيرورة العصا أفعى وخوار العجل إذ أنهم آمنوا بذلك الأمر الحسي فقط.

مما سبق ذكره نستنتج أن غاية الأنبياء هي محاولة رفع الناس معرفيا من المستوى الحسي المحدود إلى مستويات أخرى أرقى منه، وتبيان قصوره وضعفه كوسيلة وحيدة لإدراك الوجود ومتغيراته.

2- المستوى العقلي: إنّ القرآن الكريم جاء لمخاطبة العقل، إذ نجده في أكثر من مناسبة يركز على إعمال العقل ويكثر من تفعيل آلياته وفق عبارات وجودية متنوعة: **أفلا يعقلون** **أفلا يتدبرون** **أفلا ينظرون** ، وهذه إشارة بارزة إلى ضرورة إعمال العقل، وهذا ما سعى من أجله أنبّياء الله عليهم السلام، عندما واجهوا أقواما لا يعرفون سبيلا للمّعرفة من غير المستوى الحسي، إذ نجدهم استعملوا معهم طرقا لتحريك عقولهم وصناعة الجّدل في نفوسهم لعلهم ينتقلون معرفيا مما هم فيه إلى معرفة أرقى، ولنا في قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام خير مثال عندما قام بتحطيم أصنام قومه، وقام بتعليق الفأس في رقبة كبيرهم، وكل ذلك رغبة منه في إحداث ضجة معرفية تمس عقولهم، يقول تعالى: **قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم. قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون. فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون. ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون. قال أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئا ولا يضركم. أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون** [2]، من الآية نلحظ تفوق إبراهيم عليه السلام على حسية قومه، لكنهم رغم ذلك تعنتوا ورفضوا أن ينساقوا إلى توجيهاته فأمروا بحرقه، وهنا جاء التأييد الإلهي والمعجزة المباشرة التي تبطل تصوراتهم؛ لأنهم كانوا يعتقدون أن من خصائص النار الإحراق لكنها بإذن الله لم تحرق سيدنا إبراهيم وكانت بردا وسلاما عليه، رغم ذلك بقوا متعنتين لكفرهم إلا المستضعفين منهم، الذين لهم انقطاع عن مغريات الدنيا بسبب ضعفهم فكانوا مؤهلين لقبول الدعوة؛ لأن قلوبهم لم تتعلق كثيرا بالماديات ما جعلهم من السباقين إلى دعوة الأنبياء من غيرهم.

مما سبق ذكره نستنتج أن القلوب المغلفة كلية لا يمكن نقلها معرفيا، يقول تعالى: **سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب أليم** [3]، وهذا ما حدث في دعوة أغلب الأنبياء؛ إذ لاقوا استنكارا واستهزاء ومحاربة نتيجة إقفال طرق المعرفة لديهم.

---

[1] سورة طه، الآية 88- 89.

[2] سورة الأنبياء، الآية: 61-67.

[3] سورة البقرة، الآية: 10.

3- طريق القلب: إنّ المعرفة القلبية هي المقصد الأسمى الذي جاء الأنبياء من أجل تحقيقه، وأن الخّالق لا يُعرف تصديقا إلا من خلال هذه المعرفة الحضورية التي تضفي على الإنسان أبعادًا شُهودية مرتفعة عن أسوار المادة، ومرتفعة عن أسوار الزمان، إنها المعرفة الذوقية التي تثبت حقيقة الإيمان، فهناك فرق بين من يحدث له التصديق بحسه ومن يحصل له بعقله، ومن يحصل له بقلبه، فإذا صدق القلب وشاهد حقائق الوجود ذاقها وانجذب إليها، يقول تعالى: **إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد** [1]، وهذه المعرفة تعصم صاحبها من الزلل لأنه يشاهد الحقائق حضوريا من غير حجب، يقول تعالى: **ما كذب الفؤاد ما رأى** [2]، وقد طرحت في أكثر من مناسبة لكي ترغب الناس في تحصيلها ولنا في القصص القرآني خير مثال.

إنّ عرضنا للنماذج القرآنية يحمل ضربين من الطرح، فتارة نجد الأنبياء عليهم السلام يمارسون عملية التقوى في نماذج تاريخية، وتارة أخرى نجدهم يرغبون أقوامهم على تحصيل التقوى كشرط رئيسي في اكتساب المعرفة القلبية مصداقا لقوله تعالى: **و اتقوا الله ويعلمكم الله، والله بكل شيء عليم** [3].

ففي قصة سيدنا يوسف عليه السلام، نلحظ تجسيد ملكة التقوى وقوة المعرفة القلبية التي كان يمتلكها سيدنا يوسف عليه السلام قد تغلبت على المعرفتين؛ الحسية والعقلية، فلما راودته امرأة العزيز عن نفسه وكانت في غاية الجمال وغلقت كل منافذ الأبواب؛ استعصم ورأى قذارة الفعل وفرّ منه، يقول تعالى: **وراودته التي هو في بيتها عن نفسه. وغلقت الأبواب وقالت هيت لك. قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون** [4]، نجد أن قلب سيدنا يوسف كان معلقا بالله وعارفا به على مستوى القلب الذي لا يعرف الخطأ والزلل، فكما أنه توجد لذة حسية توجد هناك لذة عقلية، وكذلك لذة قلبية، فالذي ذاق لذة العقل ينظر إلى لذة الحس نظرة تجاوزية، والذي ذاق اللذة القلبية احتقر اللذتين الحسية والعقلية، لأن الأولى مادية والثانية تصورية أما الثالثة فهي شهودية، ذوقية، واسعة المجال.

وعليه، فإن الطريق القلبي هو طريق الإيمان والتصديق، هو طريق الاتصال بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، فإذا أردنا أن نضرب مثالا يُسّوقُ لنا أبرز تجليات المعرفة القلبية كعبرة يُقتدى بها وكسلوك إيماني يُترجم إلى الناس صدق وإخلاص تلك المعرفة، فإننا لا نجد أفضل مما ذكر في القصص القرآني في هذا الشأن، نضيف من تلك الأمثلة؛ قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام مع ربه وابنه، عندما أمر الله عز وجل سيدنا إبراهيم بذبح ابنه، فاستجاب لذلك هذا الشق الأول، وعندما أنبأ النّبي إبراهيم عليه السلام بما رآه من ربه لابنه واستجابة هذا الأخير لطلبه من غير اعتراض هذا الشق الثاني، فالأول لم

[1] سورة ق، الآية: 37.
[2] سورة النجم، الآية: 11.
[3] سورة البقرة، الآية: 288.
[4] سورة يوسف، الآية: 23

يعارض لأنه مصدقا عن ربه ما يراه، والثاني لم يعارض لأنه مصدقا عن ربه ما يأمر به وعن والده النّبي ما يقول له، ولا تحصل هذه الحادثة على مستوى الحس والعقل إلا إذا كان القلب سليما متصلا بخالقه، يقول تعالى: **فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين** [1]. كذلك من بين القصص القرآنية التي تبرز حضور المعرفة القلبية قصة سيدنا يعقوب عليه السلام عنما فقد ولده يوسف عليه السلام، هذه القصة كذلك تثبت صبر سيدنا يعقوب وحصول معرفة في قلبه أن سيدنا يوسف على قيد الحياة، يقول تعالى: **يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تايئسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون** [2]، وفي نفس القصة هناك مثال آخر يثبت القوة المعرفية التي يمتاز به طريق القلب، عندما عاد الإخوة بقميص يوسف عليه السلام إلي أبيهم، وكان سيدنا يعقوب قد عمي فلما اقتربوا منه، على لسان القرآن الكريم قال: **ولما فصلت العير قال أبوهم إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون. فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا قال ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون** [3].

هذا بالنسبة لبعض النماذج القليلة التي وردت في القرآن الكريم تجسد حالات التقوى التي تفضي إلى المعرفة القلبية من قبل الأنبياء، والتي كانت عبارة عن حركة تاريخية كانوا هم أبطالها في هذا المستوى، حيث كانوا مجموعة من القيم تتحرك، فإذا أردت مشاهدة القيم وسلامة القلب انظر إلى الأنبياء والرسل، كما نجدهم لا يكتفون بحركتهم وسلوكياتهم في المجتمع فقط، بل يحثون ويرغبون أقوامهم على امتلاك التقوى التي تجلب المعرفة القلبية التي تعرف على خالقهم أكثر فأكثر، ومن تلك النماذج القرآنية، قوله تعالى: **و إبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله و اتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون** [4]، وقوله: **ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه فاتقوا الله وأطيعون** [5]، وقوله: **وإلى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون** [6]، وفي قوله: **وإذا قال الحواريون يا عيسي ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين** [7]، في هذه الآية الأخيرة القوم يطالبون بالجانب الحسي وسيدنا عيسى يريد رفعهم إلى الجانب القلبي، أي بمعنى مارسوا عملية التقوى التي تدخل الإيمان في قلوبكم وبالتالي تصبح لديكم معرفة نورانية تمشون بها بين الناس.

---

[1] سورة الصافات، الآية: 102.
[2] سورة يوسف، الآية 86.
[3] سورة يوسف، الآية: 96.
[4] سورة العنكبوت، الآية: 16.
[5] سورة الزخرف، الآية:63.
[6] سورة الأعراف، الآية: 65.
[7] سورة المائدة، الآية: 112.

4. خاتمة

مما سبق ذكره في هذه الورقة البحثية توصلنا للإجابة عن الإشكالية المطروحة في المقدمة والتي خصت مسألة تحقيق مساعي الأنبياء معرفيا في أقوامهم، فكانت الإجابة عن ذلك: أنّ الأنّبياء عليهم السلام لم تتحقق مساعيهم كلية في أقوامهم وذلك بسبب الصبغة المادية والنزعة الحسية المنغلقة إلا عند بعض المستضعفين الذين اتبعوا الأنبياء لسلامة قلوبهم. هذا كما وقد خرجت الورقة البحثية بجملة نتائج وتوصيات هي على النحو التالي:

- إنّ مبدأ الوجود وغايته هو الله عزّ وجّل هو الخالق المطلق، هو الغني الرازق، هو كل شيء وإليه ينتهي كل شيء، منه يبدأ الخلق وإليه يعود، خلق الكون وخلق فيه الأرض والإنسان، وجعل الأرض ميدانا لحركة الإنسان؛ وأعطاه حق التّسيُد فيها لا عليها، كما جعل من جنس الإنسان خلفاء له في الأرض، معصومون من الخطأ، كُملا في صفاتهم وأخلاقهم، دّالين عنه في الأرض، أعطاهم أهلية الخلافة، فلا يصح الإنسان الفاسق أن يكون رسولا لله أي إنسان كامل، كذلك الحال بالنسبة للجّمادات والنباتات.

- إنّ القرآن الكريم الذي يعتبر كتاب الوجود المكتوب، يعرض لنا طرق عدة خصت المعرفة والتي تعني مطلق الإدراك في الوجود، وهي أمر ضروريٌ بالنسبة للإنسان، تلك الطرق المعرفية تبدأ بـ: المعرفة الحسية التي تعتمد على الحواس الخمس، وهي معرفة أولية تقود إلى المعرفة العقلية التي تعتمد على تجريد الصور الحسية إلى مفاهيم واستدلالات برهانية، المعرفة الأولى والثانية إذا أضيف لهما عنصر التهذيب والتزكية فإنها تفضي إلى معرفة ثالثة بارزة ورئيسية؛ تمثلت في المعرفة القلبية، وهي معرفة نورانية حضورية شهودية يقينية خاصة بالأولياء والأصفياء، أما المعرفة الرابعة التي يطرحها القرآن الكريم فهي المعرفة الوحيانية وهي معرفة جعلية خاصة بالأنبياء والرسل تأتيهم مباشرة عن طريق الوحي.

- إنّ عمل الأنبّياء على مستوى المعرفة شهد عدة نقلات، بدًا بمحاولة إبطال الجانب الحسي كطريق وحيد للمعرفة، ثم محاولة نقل المجتمع من الحس إلى العقل وذلك بصناعة الجدل الذي يدعو إلى التأمل والتدبر والذي يثبت محدودية المادة، انتهاءً إلى الحث على المعرفة القلبية وإلى التقوى وكان ذلك عن طريق القول والعمل، يحثون بأقوالهم ويجسّدون التقوى أمام أقوامهم.

-توصيات الورقة البحثية:

دعوة الشغوفين بالمعرفة إلى أن يهتموا بالدراسات المعرفية التي طرحها القرآن الكريم، ويركزوا على النقلات المعرفية بصفة عامة، والمعرفة القلبية بصفة خاصة كونها يقينية تقرب الإنسان أكثر من الله. كما نوصي الجهات المكلفة بالمناهج التربوية بالتركيز على المواد التي تحث السير والسلوك والأخلاق كسبيل أمثل لامتلاك ملكة التقوى التي تجلب المعية الإلهية، وجعلها هي الهدف الرئيسي الذي وفقه ينتظم كل شيء.

5. قائمة المراجع

- إبراهيم مذكور،(1982)، **المعجم الفلسفي**، القاهرة، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية.
- أبو العباس أحمد زروق الفاسي، **مقدمة التصوف وحقيقته**، تونس، دار الإمام ابن عرفة.
- أحمد عبد المهيمن،(2008)، **نظرية المعرفة بين ابن رشد و ابن عربي**، القاهرة، دار الوفاء.
- بلقاسم حاج حمد،(2003)، **المنهجية المعرفية للقرآن الكريم**، بيروت، دار الهادي.
- رابح جابه، (2002)، **القرآن والعلم - خلق الإنسان والجان-**، الجزائر، دار المعرفة.
- راجح عبد الحميد الكروي، (1992)، **نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة**، عمان، مكتبة المؤيد.
- زكي نجيب محمود، (2018)، **نظرية المعرفة**، القاهرة، مؤسسة الهنداوي.
- الطاهر بونابي، (2020)، **الظاهرة الصوفية العرفانية بالمغرب الأوسط**، تلمسان، النشر الجامعي الجديد.
- عبد الحليم محمود،(1980)، **الإسلام والعقل**، دار المعارف.
- محمد حسين الطباطبائي (1979)، **الميزان في تفسير القرآن**، لبنان، مؤسسة الأعلمي لنشر والتوزيع.
- محمد غلاب، (1966)، **المعرفة عند مفكري الإسلام**، القاهرة، د.د.
- مراد وهبة، (2007)، **المعجم الفلسفي**، دار قباء الحديث للطباعة والتوزيع.
- منصور بختي دحمور،(2007)، **ظاهرة الولاية**، سوريا، دار صفحات للنشر والتوزيع.

Bibiography list

- Mansour Bakhti Dahmoor, **(**2007) The Psychological Phenomenon, Syria, Dar Pages for Publishing and Distribution.
- Rabah Djabeh, (2002), The Qur'an and Science - The Creation of Man and the Jinn, Algeria, Dar Al-Ma'rifa.
- Belkacem Haj Hamad, (2003), The Cognitive Methodology of the Holy Qur'an, Beirut, Dar Al-Hadi.
- Zaki Naguib Mahmoud, (2018), Theory of Knowledge, Cairo, Al-Hindawi Foundation.
- Ibrahim Mathkour, (1982), The Philosophical Dictionary, Cairo, General Authority for Princely Printing Affairs.
- Rajeh Abdul Hamid Al-Karawi, (1992), The Theory of Knowledge between the Qur'an and Philosophy, Amman, Al-Muayyad Library.
- Ahmed Abdel-Muhaymin, (2008), The Theory of Knowledge between Ibn Rushd and Ibn Arabi, Cairo, Dar Al-Wafa.
- Muhammad Ghallab, (1966), Knowledge among Islamic Thinkers, Cairo.
- Abu Al-Abbas Ahmad Zarrouf Al-Fassi, Introduction to Sufism and Its Truth, Tunisia, Dar Imam Ibn Arafa.
- Al-Tahar Bounabi, (2020), The Mystical Sufi Phenomenon in the Central Maghreb, Tlemcen, New University Publishing.
- Abdel Halim Mahmoud, (1980), Islam and Reason, Dar Al Maaref.
- Muhammad Houcine Tabatabai (1979), Al-Mizan fi Tafsir al-Qur'an, Lebanon, Al-Alami Publishing and Distribution Foundation.